# ملاعب الصبا والشباب
# كيف سرقتها أجهزة الأمن والاستخبارات وجلاوزة النظام المباد؟

بغداد/ صافي الياسري

امتطي دراجتي الهوائية واتسلل الى ضفة دجلة العابقة برائحة لم اتمكن بعد اربعين عاماً من نسيانها ومن تحت جسر الائمة اصعد شمالاً على السدة الترابية الفاصلة بين البساتين والشاطيء والتي بنيت في الخمسينيات ايام الفيضان بناها رجال الأعظمية والكاظمية وهم يهزجون "اجه الروج عالسدة وموسى بن جعفر رده" يوم لم تكن هناك سيارات مفخخة وعبوات ناسفة وانتحاريون، وكانوا يتبادلون دوريات الحراسة حماية لمدينة الكاظمية من الغرق أو من (طيران الماء) كما حصل في المنطقة التي سميت فيما بعد (الطارمية) رائحة الصيف والبساتين والتراب والحشائش الناعمة والتوت والنبق، كنا نخرج مجموعة على دراجاتنا وننتقي اكبر شجرة توت وفيها انضج الثمر ويصعد واحد او اثنان اعلاها ويهزانها فيتساقط التوت على تراب السدة ويمتزج به لكننا لم نكن ننتظر حتى ان نغسله بمياه دجلة بينما كان رفيقانا يستمتعان بالثمر طازجاً من عناقيده.. آه يا عناقيد التوت الرمانية والحمر والبيض، كانت تلك لعبة الظهيرة وكنا نغافل اهلنا الذين كانت تاخذهم قيلولة في سرداب بارد (بادكيره) عامل ومروحة منضدية تدور الهواء في انحاء السرداب الذي استلقى فيه الجميع تلفع بعضهم بشرشف من (خام الشام) بالرغم من حرارة تموز اللاهبة (تموز الذي ينشف الماء بالكوز)، لم نكن نفكر في انقطاع التيار الكهربائي او البحث عن خط في احدى المولدات، ننتهي من التوت على السدة على انغام الماكنة التي تسحب الماء لتزود البساتين بحاجتها فقد كان المزارعون تحت ظلال النخيل والنارنج والبرتقال يزرعون الخضار بجميع انواعها وما كان احد يمنعنا من النزول الى الواح الطماطم او الخيار وتناول البعض من منتوجاتها فذلك عرف معمول به وضعه الفلاح او المزارع على نفسه ادخل وكل حتى تشبع ولكن لا تخرج خارج البستان شيئاً معك، نغسل حبات الطماطم في احد السواقي ونتناولها بينما تناولنا زوجة البستاني عدة ارغفة خبز حار... يال الهي..

من كان بحاجة الى الطعام بالرغم من ان الوقت كان وقت تناول طعام الغداء في العراق كله، نصعد مرة اخرى الى السدة ونترك بستان العبسلي خلفنا في موكب تحت ظلال صفين من اشجار النخيل والغرب والصفصاف، والحور والسدر والتوت والنارنج و.. الادغال المتراكمة على جانبي السدة وهي تعطي المنظر العام هنا القاً اصفر ذهبياً فيه اعشاب فاتها الربيع ولفحتها شمس تموز فاذوتها ومنحتها لونها الذهبي، نتجاوز صفي الشجر الواقف حرساً ملكياً فنواجه دار عرفة باشا وهو من رجالات العهد العثماني لم يغادر مع من غادر وهي دار مبنية على الطراز البغدادي بشناشيلها المتميزة وجهها الى شاطئ دجلة ولها باب خلفي الى بستان ملحق بها وقد باع الدار والبستان ابن السيد عرفة باشا الى امانة العاصمة التي تذكرت للدار ماضيها حين كانت ملتقى رجالات السياسة العراقيين وفي مقدمتهم نوري السعيد باشا، فاعادت بناء الدار التي تهدمت بعض اركانها على نفس طرازها القديم وحولت البستان العامر الى متنزه ومتنفس لسكان مدينة الكاظمية وقامت بتأجيرها الى احد المواطنين الذي حولها الى مقهى ومطعم للمشويات والسمك المسكوف ومن المؤلم ان جهاز الاستخبارات العسكرية السابق –الشعبة الخامسة- لم يحترم قيمتها كتراث بغدادي اصيل فاستولى عليها واحالها في البدء الى موقف ثم الى دائرة حسابات ثم الى مخزن ذخيرة ما لبثت ان فجرته قوات الائتلاف في حينها، ونمضي بجوار دجلة حتى الانعطاف نحو مقاطعة التاجيات باتجاه الطارمية، بداية المقاطعة بساتين اشترتها الدولة لبناء مستشفى للامراض الصدرية ولكنه تم صرف النظر عنها لاسباب غير معلومة فتولتها الجمعيات الفلاحية التعاونية، التي قامت بتضمينها وما لبث الدهر بها بعد ان سقط الحكم بيد البعثيين ان تقاسمتها حاشية النظام حتى طارق عزيز نالته حصة فبنى هناك دار استراحة ما زالت قائمة وما زال وكيله يديرها ويقول الوكيل ان عدة شاحنات قبل ضرب العراق قامت بنقل اثاث طارق عزيز الى جهة مجهولة وان الدار والمزرعة بامان اليوم بعكس بعض الدور والمزارع التي استولى عليها اما فلاحون كانوا يعملون فيها أو مجهولون استولوا عليها بقوة السلاح ولا اثر للدولة في هذا الموضوع، فعدد من وكلاء الحاشية القديمة ما زالوا في هذه المزارع يتسلمون وارداتها ولا تعلم لمن يسلمونها أم هم يحتفظون بها لأنفسهم.. هذا شارع الوزراء كما يسمونه لأن اغلب المزارع فيه يملكها الوزراء المخضرمون في النظام البائد.. ويمكنك من على السدة ان تشاهد حطام دار سعدون حمادي التي سويت بالأرض باكثر من صاروخ ولن نتوغل مع السدة بعيداً فالبساتين على الجانبين اجبر اصحابها على بيعها بثمن بخس، ولم نكن طوال اكثر من عقدين قادرين على المرور والفرجة على جنائن بغداد التي لا تضاهيها جنائن، وهنا ايضاً جدول المشروع حيث يستخدمه بعض اولادنا غير القادرين على السباحة في النهر، ومع ذلك فقد حرمه عليهم عبد حمود سكرتير الرئيس المخلوع حتى اوجد له مساحة تقابله فبنى فيها دار استراحة لياليه الحمر وكذلك مزرعة مضافة الى بقية المزارع التي يملكها.. لقد سرقوا الشاطئ كله ولم يتركوا لنا فضاءات ملاعبنا القديمة ولا بعضاً منها ولا منفذاً الى دجلة.. حتى "العبرة" الى الكريعات لم تجد لها الا مكاناً ضيقاً يكاد لا يستع لمرور شخصين سوية، وبدءاً من جسر الائمة وصولاً الى دار عرفه زحفت البلدوزرات ذات يوم واغلقت المنطقة ولم نعرف شيئاً الا بعد ان انتهى بناء ملحقات ومباني الشعبة الخامسة، عندها فهمنا ان الاستخبارات العسكرية سرقت واحداً من ملاعبنا الأثيرة واننا سنفتقد توت السدة الى الابد وان صافرة شباب الأعظمية ودعوتهم لنا للسباحة ولعب كرة الماء في الجزرة الرملية التي كانت تظهر كل صيف وسط دجلة.. لم يعد بامكاننا سماعها فلا سباحة هنا بعد اليوم ولا عبور الى الجزرة ولقاء شباب الأعظمية واللعب وتناول الرقي ولا سماح بالمرور على السدة التي لم نعد نعرف مصيرها ومصير اشجارها، وتأسينا ان بامكاننا التمتع بمباهج متنزه المحيط، حيث نلهو ونلعب كرة القدم في مساحة صغيرة غير مزروعة ولكن اخطبوط الشعبة الخامسة ما لبث ان امتد الى الملعب فاغلق لاستخدامات الشعبة ولحق به متنزه ١٤ تموز بجوار جسر الائمة على الضفة اليمنى لدجلة، انها سرقة منتظمة لملاعب صبانا وليس في يدنا حيلة ولم نعد قادرين حتى على الوقوف على جسر الائمة والنظر بحسرة الى تلك الملاعب.

**-أماكن الأمسيات غابت عن العين وترسخت في الذاكرة والروح.**

### مدينة العجائب

حين سقط النظام شهدنا الأرصفة والشوارع تمتلئ بالملابس العسكرية والهويات والاسلحة الشخصية، كان ذلك المنظر اكثر اكتظاظاً قرب الشعبة الخامسة التي فتح الأمريكان ابوابها لمن هب ودب ليسلب وينهب ودخلنا (الشعبة) او المدينة بالأحرى فهي تحوي عدة عمارات سكنية للمنتسبين وعدد من المخازن والجملونات التي تحوي انواع البضائع والسلع، احدى النساء اللواتي كن ضمن حملة الهجوم الناهبة عرضت حاسوباً للبيع بألفي دينار فهي لا تعرف قيمته ولم يترك الناهبون شيئاً في المدينة وحين دخلتها كنت ابحث عن شيء آخر كنت ابحث عن سدتي القديمة، لكنني وجدت انها سويت بالأرض ولكن المدينة كانت مجهزة احسن تجهيز فهي اضافة الى استثنائها من القطع المبرمج للتيار الكهربائي فيها من المولدات ما يكفي لخدمة مدينة الكاظمية كلها، وهناك مستوصف خاص فيه جناح لطب الاسنان فقد كل مستلزماته في يوم واحد ومرآب سيارات احتوتها الايدي وناد خاص بالمنتسبين وناد خاص بالضيوف ومشرب وبيت خاص بالطيور النادرة ومسبحان وكل ما يخطر لك ببال مما يعاني منه العراقيون حرماناً فالمخازن مليئة بالمواد الغذائية، حتى التمر بانواعه له مخزن خاص كل ذلك تركه اللصوص وفروا.

اما الشقق السكنية فقد نقل اثاثها قبل الحرب وانتقل عنها ساكنوها الى اماكن اخرى في الغالب دور ذويهم في المحافظات فاغلب منتسبي الشعبة من محافظات معينة.. كنا نتجول في المدينة العجيبة حين سمعنا ضجة تراكض الجميع الى مصدرها فقد تم اكتشاف سجن تحت الارض وفيه عدد من السجناء يكاد يقتلهم الجوع وهم يكادون لا يبصرون طالت شعورهم واظافرهم كما انهم فقدوا الاحساس بالزمن ونسوا هوياتهم وهؤلاء نقلهم الاميركان الى الولايات المتحدة للعلاج.

قلت في نفسي وانا اتجول في المدينة الان انتهى الكابوس وساناضل لشق (كورنيش) يمتد من جسر الائمة حتى منطقة المطاعم في شارع المحيط، ولكن خاب فألي فقد وجد الاميركان في المدينة موقعاً ستراتيجياً لجعله قاعدة تم تأثيثها بسرعة ومنع الدخول اليها او المرور بجانبها من جديد بل امتد المنع الى ما بعد نادي الكاظمية الرياضي.

اما متنزه المحيط الذي املنا عودته فقد غزته عدة عوائل تقاسمته مزارع خاصة وبنت فيه دور سكن وسكن دار عرفه من سكنها ومنعوا المرور بجانبها بقوة السلاح، ليس هذا فحسب بل اننا فقدنا جسر الائمة باكمله فقد تم غلقه ومنع العبور من فوقه واليوم الذي سمح فيه للمواطنين بالعبور عليه من جهة الأعظمية بمناسبة وفاة الامام موسى بن جعفر في العام الماضي حدثت كارثة التدافع بسبب اشاعة ارهابية وراح ضحية هذه الكارثة ١٢٠٠ شهيد بين مدعوس وغريق، ذلك ان الدعامات الأسمنتية التي وزعت على الجسر كانت تعرقل فرار الناس المذعورين من خبر كاذب حول نشاط ارهابي في الجهة الاخرى من الجسر، فمن يعيد لي جسري المحبوب وسدتي الترابية واشجار التوت والنارنج؟ فالوذ بعذر الواقع للبنات في الاعظمية غادرنا الفورد وعبرنا الشارع باتجاه ساحل دجلة.. آه.. من يستطيع الآن ان يعثر على مصطبة فقد حجزت جميع المصاطب من قبل رفاقنا العشاق.. امسكت كفها الرقيقة وانحدرت بها قريباً من الساحل الأزرق.. من هنا يمكنك تصفح مناديل الماء وتتخيل رقتها، بقيت ممسكاً بكفها حتى تأوهت فقد ضغطت عليها بقوة دون ان ادري اعتذرت وقلت لها اني اخشى ان تسرقها نسمة سحرية

هنا حديقة العشاق حيث ينعطف دجلة قادماً من سفينة الأعظمية باتجاه الرصافة.. وهنا جنينة الروز التي تعطرنا جميعاً، وكنا نكبر امامها شهراً شهراً وسنة سنة بينما تستعيد شبابها والقها كل ربيع وكل يوم شتائي مشمس تزرع دفئها في ارواحنا واجسادنا و.. فجأة احاطتها الاسلاك الشائكة ومنع المرور اليها وهجمت البلدوزرات على كازينو الخورنق وعاثت فساداً في كل حديقة العشاق وخربت خبيئة الروز مطروحة على الارض ذابلة وقد فقدت عطرها..

صرنا نبحث عن مكان آخر ليحتضن جلستنا البريئة بينما كانت جدران قصر فخم ترتفع يوماً بعد آخر، ثم منعنا من المرور بجانب ذلك القصر، انهم نفس اللصوص الذين صادروا ملاعبنا في الكاظمية يصادرون مرابع الشباب في الاعظمية، و.. سقط النظام وفتحت ابواب القصر الفخم، وساد النهب ايضاً لكنني كنت اتطلع الى فخامة البناء من الداخل، فتلك فرصة لم احلم بها يوماً، وهل تصدقون اني كنت احدث نفسي فارسم خارطة المصاطب التي كانت منصوبة في الحديقة، واحدد موقع جنينة الروز، وحين انتبه الى الجدران والاحواض والحدائق اجدها ترقى الى عشر معشار جمال جنينة الروز، اغادر القصر ويعاودني الحنين الى جنينة الروز متذكراً لحظة ما أو جملة تبادلتها مع رفيقتي ارتبطت بالمكان وعطره ونسيمه وتقسيمات الوانه، فاعود الى القصر.. لكن هذه المرة كانت تقف على كل باب من ابوابه دبابة والاسلاك الشائكة تحيط به ولافتة كتب عليها بالعربية والانجليزية تحذير من الاقتراب، وجنود اميركان هنا وهناك وايديهم على الزناد يشيرون لك ان تبتعد ومرة اخرى يتملكني حزن غاضب لا املك له علاجاً فابتعد مردداً بصوت عال هذه المرة.. من يعيد لي جنينتي؟ هل احدثكم ايضاً كيف سرق اللصوص شارع ابي نؤاس؟ وشواطئ الجادرية والمسبح؟.. قد افعل ولكن ما الفائدة ما دمتم لا تستطيعون ان تعيدوا لي ملاعبي؟

**-أين ذهبت الشاحنات التي حملت أثاث طارق عزيز من دار استراحته بعد سقوط الطاغية؟**

### جنينة الروز وحديقة العشاق

اتلمس حقيبتي وانسى المحاضرة الأخيرة، فقد اتفقت معها ان نغادر سوية مبنى كلية الاداب القديمة حيث جمعتنا الدراسة، أعدت قراءة قصيدة الشوق التي سهرت ليلة البارحة لاكتبها وتفقدت (اللفات) بالروست والتي أعدتها لي الوالدة وسرحت شعري وتركت باب الكلية خلفي مسرعاً كي لا ادعها تنتظر طويلاً

ولمحتها تحت شجرة اليوكالبتوس وقبل ان اقترب منها حركت قدميها باتجاه كراج باب المعظم حيث صعدنا احدى (الفوردات) وعند ثانوية الحريري الأمني الذي يفرض اجراءات احترازية من هذا النوع واصلي ليوم قادم استعيد فيه ظهيرة على دراجتي فوق تلك السدة الراسخة الصورة ببالي ومخيلتي.

اتلمس حقيبتي وانسى المحاضرة الأخيرة، فقد اتفقت معها ان نغادر سوية مبنى كلية الاداب القديمة حيث جمعتنا الدراسة، أعدت قراءة قصيدة الشوق التي سهرت ليلة البارحة لاكتبها وتفقدت (اللفات) بالروست والتي أعدتها لي الوالدة وسرحت شعري وتركت باب الكلية خلفي مسرعاً كي لا ادعها تنتظر طويلاً

ولمحتها تحت شجرة اليوكالبتوس وقبل ان اقترب منها حركت قدميها باتجاه كراج باب المعظم حيث صعدنا احدى (الفوردات) وعند ثانوية الحريري

---

الورقة الثالثة عشرة

# الضيـــاع فـــي حفـــر البـــاطن

## في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل

عبد الكريم العبيدي

*انت، أيها الخوف، الذي إياي ينادي، يا مفضحي في ظلمة هذه الحفرة العفنة يا زائر المساءات والنهارات، أهكذا مع الجرذ أموت؟ لتكن انت الروح والجسد فأنا تبت، او هكذا أرى.. ولكنني تركت دموعي يقظة.*

*بدأت حفرتي تضيق بي. جسدي يذوي ويتقلص ايضاً رائحة الضيق تأسرني. انا اهبط من شكل الى آخر. اشكالي تصغر وتتقلص وتضيق.*

لكن، من حولي، كان كل شيء يكبر ويتسع ويمتد. كان كل شيء يتعاظم، ينمو بسرعة، ويؤثث اشياءه، وكنت اذوب فيه واتلاشى مثل حبة ملح.. صورتان تتباعدان في اعماقي، الاولى تتهشم وتضيع، والاخرى تتسع، وانا، من بينهما اكبر بعفونتي، رائحة جسدي وطعم ضياعي الذي اهبه للرمال، فيعود لي من اجساد الجنود، ومن افواههم ومؤخراتهم.

كنا نتبادل العفونة بسخاء. نتناسب باجيال عديدة من القمل. جيوش من تلك الحشرات الصديقة نمت وتزاوجت وانجبت على افرشتنا ووسائدنا وشعر رؤوسنا. وكانت تنتقل من رأس الى رأس، ومن جسد الى آخر من دون ورقة اجازة مزورة او ترخيص كانت تضع بيوضها في كل مكان وتسهر على رعايتها وحمايتها من حك اجسادنا المستمر.. القمل في حفر الباطن، تحالف مع الصواريخ والمقاتلات على نهشنا من الداخل. وكانت عفونتنا تتعاظم مع ولادة كل قملة فتية لتنافس كل من كان يكبر من حولنا، من وحشية ودمار ورعب.

في الليل، تشن اسراب من القمل غارات عديدة على اسفل بطوننا وآباطنا وظهورنا وشعر رؤوسنا وفي كل جزء آخر يصعب علينا حكه باظافرنا الطويلة لسعات موجعة تحدث في آن واحد، فنصرخ ونتأوه، ثم نستسلم بصمت لذلك الألم ولنوباته الشديدة.. احياناً، بل في احيان عديدة كنا نتحاور ونحن نحرك ايدينا بسرعة للنلامس مواضع اللسع ونحدد امكنة الألم في اليمين او في الشمال، في اعلى واسفل اجسادنا كنا نسبح، نعوم في بحور من القمل، وكل شيء كان يبدو لنا مألوفاً ولا يثير خجلنا. لقد تلاشت اغلب تقاليدنا هناك، ربما لأننا فقدنا آدميتنا، ولم يعد للحياء بيننا من معنى. كنا نتغوط جماعياً، يتقاسم بعضنا قوطية ماء واحدة اثناء التغوط. وبعد شحة الماء، كنا نتغوط في العراء ونستخدم الرمال ولم يكن يبعد احدنا عن الآخر سوى بضعة امتار.. اننا نغرق في ضياع مفتوح، لانهائي فلماذا نحتفظ بآدمية خرقاء مليئة بالقيود والتحفظات؟ لنقترب اذن من حيوانيتنا الواسعة ، من تلك البدائية الرحبة التي اكتشفناها هناك، او هي التي اكتشفتنا، عثرت على بهيمية طازجة، ما زالت تحتفظ بوحشيتها ورعونيتها، وما زالت عصية جداً على الترويض والألفة.

ومع تزايد القصف الجوي كنا نزداد بداوة، نرتد على محفوظة التحضر التي نسينا كل كلماتها الشوهاء. تحولت ادوات التخاطب والاستفهام والرجاء الى ما يشبه تلك الاصوات التي تطلقها الثيران والأبل والماعز والحمير. ولم يعد يتحكم بنا أي معيار أو نظام عدا قانون الصحراء والضياع في رمالها..

قانون الخوف الذي اغار علينا مع اول سرب من طائرات –F16-.

في الليل يغزو بعضنا بعضاً تحولنا الى لصوص تسرق بقايا الماء المخزون والنفط والحطب والبطانيات والاطعمة والصمون والاحذية والجوارب والتبغ وورق لف السكائر والقماصل والجوّل والفوانيس والقدور.. اي ملجأ يتركه اصحابه لسبب ما يتعرض للسرقة، ولن يجد اصحابه فيه بعد عودتهم سوى اسلحتهم التي لم يفكر احد بسرقتها. البندقية، كانت السلعة الرخيصة والوحيدة التي يمكن لصاحبها ان يرميها في اي مكان ثم يعود اليها فيجدها كما هي.. اما من الخارج، من ذلك الذي كان يتسع ويتعاظم من حولنا، فقد كانت اخبار الدمار تعصف بنا مدن تتحول الى خرائب. نزوح جماعي الى المناطق الريفية. تجمعات للنازحين عند الحدود.. بغداد والمحافظات تغرق في الظلام وقوع الكثير من الضحايا المدنيين بين سكان العاصمة ثم جاء ثمن الحرب باهظاً. الثمن البشري لذكاء القنابل الموجهة بالليزر، والتي كثيراً ما اخطأت اهدافها وارتكبت مجازر كبرى.مقاتلة من طراز الشبح اسقطت قنبلتين زنة كل منهما تسعمئة كيلو غرام على مخبأ تحت الأرض اشعة الليزر فشلت في ادخال احدهما من خلال فتحات التهوية فانفجرت قريباً منها وسدت مخرج المخبأ الوحيد اما الثانية فاخترقت سقف الملجأ وانفجرت داخل اكبر غرف الطابق العلوي لتوقع المزيد من الضحايا.. قنبلة واحدة قتلت ثلاثمئة واربعة عشر عراقياً، بينهم مئة وثلاثون طفلاً.. كلهم تحولوا الى جثث متفحمة تم انتشالها فيما بعد على الهواء مباشرة، يتابعها الملايين من مشاهدي التلفزيون في كل مكان في العالم.

صدام، وبعد عشرة اعوام على اندلاع العاصفة قال :"ان ما دمروه هو نسخة عن الأصلي وبقي متحف الحضارة اما الضحايا فهم سارية راية الله اكبر"..

ولكن المنتمين الى تلك النسخة المدمرة، الضائعين في الرمال كانوا يقاسمون ضحايا المخبأ آلامهم وموتهم البطيء في ذلك الفرن الليزري وكانوا يرون صورة غير مستنسخة من صور نهايتهم الوحيدة. صورة تجمع كل ضحايا الحروب في متحف وحشيتنا.. اما جثثهم المتفحمة فكانت تشير الى خطيئة كبرى، كنا قرابينها وضحاياها وكانت تحرقنا مثلهم وتحيلنا الى جثث رملية..

مشاهد مروية من ذلك الدمار كانت تمزقنا جميعاً، خصوصاً حين نجمعها بذاكرة معطوبة مع انباء هروب اول مجموعة من الطائرات العراقية الى ايران من بينها مقاتلات جديدة وقاذفات روسية وطائرات نقل اضافة الى مشاهد الحرق والتدمير التي شملت كل المدن العراقية والمنشآت وغيرها.. حكايات من ذلك النوع كانت لا تقل رعباً من المقاتلات الاميركية والفرنسية والانكليزية في تلك الساعات الحمر من ضياعنا..

كنا ما زلنا نعيش اهوال انتظارنا المخيف لأمر اشراكنا في معركة الخفجي وتداعياتها.. ما زلنا نعيش صدمة الخفجي ومآسيها. ما زلنا غير مصدقين اننا نجونا من ذلك الفاصل الدموي.. استذكارات تتقاطع في كل لحظة فتهيجنا.. مجموعة قتالية كبيرة عبرت الحدود السعودية-الكويتية بمحاذاة الساحل واحتلت مدينة الخفجي على بعد (١٠) كيلو مترات داخل الحدود السعودية مدينة مهجورة، غادرها سكانها الخمسة عشر الفا. ولم يجد الجيش العراقي صعوبة في احتلالها.. خصوصاً، انه لم يتعرض لاي قصف جوي الا بعد ساعات من احتلالها.. ولكن في اليوم التالي، حدثت معركة شرسة مع القوات السعودية والقطرية، امتدت من شارع الى شارع ومن بيت الى آخر، وانتهت باستعادة المدينة وقتل العشرات من الجنود العراقيين واسر المئات منهم

"الخفجي" كانت صدمتنا الاولى الفصل الأول من الهزيمة التي ابتلعتنا جميعاً فيما بعد..

كنا نقرأ بها ما كان ينمو بعيداً عن الصحراء بعيداً عن اعيننا الغائرة في سماء حفر الباطن المرصع بمئات المقاتلات ليلاً ونهاراً.. كانت هناك سماوات اخرى تشهد مهرجانات ليلية ساهرة.. سماء الرياض شهدت مبارات الصواريخ الجميلة.. صراع حاد بين صاروخين في كل لحظة.. يتقدم "سكود" نحو الجنوب فيلاقيه "باتريوت" في اعنف لقطة جوية حربية ويسقطه.. مبارة صاخبة بالالوان الطبيعية كانت تجري هناك ليس بعيداً عنا وكان سكان الرياض يراقبونها عن كثب..

نحن، في حفر الباطن، كنا نراقب هلال نهايتنا الذي تأخر كثيراً هلال قد يظهر أو لا يظهر في سماء فقدت سحرها وتحولت الى فضاء حربي صاخب. لربما يظهر فيوحدنا بقنبلة من عيار قنبلة ملجأ العامرية الموجهة بالليزر. لربما يظهر فيكتب بهدوء نهاية قصتنا شديدة الجفاف بآخر جملة للضياع.. انتم اسرى حرب. ولربما لا يظهر ولن يظهر ابداً، وعندها نتحول الى وقود ازلي لجحيم يعرفه ابناء صحراء الباطن وحدهم.. جحيم، تقودك مرارة كل هزيمة فيه الى عقم هزيمة اخرى، فتشعر بعد حين ان الضياع في الرمال انما هو هزيمة لا غير.. هزيمة بانت كل ملامحها من وقت مبكر، وفي ليلة صاخبة من ليالي البرد والقصف الجوي الشديد.

كنت وحدي، وكم كنت وحدي؟ في وحشة حفرتي، قبري الذي حفرته بيدي، ثم تركته هناك للجرذ والثعابين والدود..

هل تتذكر حفرتي زائر ما بعد منتصف الليل الزائر المهزوم. الذي خذلته الصحراء فانهار مبكراً؟.. هل تتذكر ضيفها الكبير، الطارئ، الذي ضيف نفسه فجلس على الرمل؟.. لقد جاء من دونما دعوة ورحل بلا وداع، خلع تاجه المرصع بالنكسات واعلن استسلامه .. نهاية بلا صدى ولا استحسان ولا عقوبات.. نهاية أبهة فارغة جوفاء ونهاية جعجعة ظاهرية ولكنها مفخورة لماذا لا أتمكن من الحزن على مثل هؤلاء حتى هذه اللحظة؟!

ضيف حفرتي، وليس ضيفي، شعر بحراجة موقفه وسط آلاف الشظايا التي كانت تحلق فوق رأسه وربما انتفض في رأسه، رنين اسى مكتوم منذ اعوام، وربما ركل زيفه المنقوش من حوله وخرج من مملكته الورقية، لا ادري ولكنه ظل بنظري احد تلك المخلوقات الشطرنجية التي تنسى اصابع محركها فتتوهم كثيراً ما زلت اكرههم حتى بعدما خلعوا مملكتهم الزيتونية وتفرقوا.. ولكن ذلك المشهد، في تلك الليلة الباردة يبقى مثل لقطة سيئة اهملها المونتاج فسقطت، لقطة فاشلة اراد فيها بطلها ان يخرج من شرنقة مثقوبة فاكتشف انه مقذوف في متاهة، وان كل من حوله يعيش يوم قيامته الخاص.

"البطل" برك قبالة فتحة الملجأ، وحاول ان يستطلعه من الداخل كان يحاور صاحبه الذي ظل ساجداً ومرعوباً خارج الملجأ. ثم التفت نحوي ورجاني ان يقاسمني حفرتي قليلاً لم اجبه، ولكنه ادرك ان صمتي في تلك الدقائق القلقة تعني الموافقة فدخل بهدوء وجلس الى جانبي، بينما ظل صاحبه خارج الملجأ.

لقد اعتدت على ملاقاة الغرباء ليلاً.. جنود يجوبون الرمال طمعاً في الهروب أو الاستسلام، أو بحثاً عن مواضع وحداتهم ، او لتقصي اخبار الحرب. ولم تكن لدي ادنى رغبة في التعرف عليهم او مساعدتهم.. "المشاة": هم الصنف الأسوأ في الجيش عادة.. خليط من المتسربين وحملة الشهادات المتدنية وابناء الريف والبدو، ولذلك يفرض عليك العيش معهم ان تبقى في عزلة.

ولكن ضيف حفرتي لم يكن منتمياً اليهم على ما يبدو. ظل مطرقاً برأسه، صامتاً، قليل الحركة. ولم تنبعث من جسده رائحة عفنة. بل على العكس، شعرت انه صدم برائحتي واستسلم لواقع الحال. وفي اللحظة التي ارتجت فيها حفرتي وتصدع سقفها اثر انفجار قذيفة، خرج البطل من قوقعه، وبدأ يحاور نفسه بصوت مسموع، قال "مرة نحارب الكورد، ومرة نحارب ايران، ومرة نحارب الكويت، والأن اميركا مع ثلاثين دولة تحاربنا.. متى ننتهي من كل هذه الحروب والمجازر حياتنا كلها سواتر وحجابات وملاجئ.. ولكن كيف سننتصر على اميركا والعالم بالبندقية الكلاشنكوف؟!.. تره هاي طرطره"

لم اجبه، بدت لي اكتشافاته قديمة ومتأخرة، ولم تكن جريئة طبعاً، فقد احترقت حواجز الخوف في الصحراء منذ شهور، ولكن ما اثارني فعلاً هو نوع العلاقة ما بينه وبين صاحبه المرعوب، خارج الملجأ، الذي ظل يردد مراراً جملة مذعورة مثله "لكم هاي اشلون ورطه؟.. اتورطنه ورطه.."

الواقع، انا لم اكن منشغلاً بالضيف وصاحبه اكثر من حيويتي بتدخين سيكارة فاخرة من سكائر "العاشق".. كنت اخشى ان يقاسمني الضيف نفساً منها، فتحل بي كارثة، واهدر نفساً نادراً ونفيساً من تلك السيكارة التي لا تقدر بثمن.. ولكنني اشعلت السيكارة اخيراً ورحت ادخن بتلذذ ولم تمض ثانية واحدة على انتشار رائحة الدخان داخل الملجأ، حتى اقدم الضيف على ارتكاب واحدة من اكبر حماقاته. بدا نهماً ومصعوقاً وهو يباعد ما بين اصبعيه ويتوسل بي ان اكرمه بنفس واحد.

تضايقت كثيراً، وشعرت برغبة في توبيخه.. زعقت في وجهه اخيراً. قلت "لا، ولا نصف نفس، اجلس واصمت".. وضع يده على فخذه وهو يردد باسى "حقك يابه حقك. هاي هيه".. ثم عاد يحاور نفسه ولم يبتعد كثيراً عن سآمة الحروب وويلاتها وفجأة التفت نحوي وسألني: انت لا تعرفني طبعاً، ها؟.. لم اجبه ايضاً وتوقعت ان يعرفني هو بنفسه، وفعلاً قال بعد ثوان: "انا مقدم اللواء الذي انت احد أفراده" لم التفت اليه، ولكني شعرت انه ازاح الغبار عن نكتة مخنوقة في اعماقي يعود تاريخها الى ما قبل "الدريهيمة" والسجن والترحيل والصحراء والحرب.. نكتة ربما اختزلت ضياعي وموتي وعفونتي، والتاج والنجمة على كتف الضيف اليمنى التي بانت ملامحها على وهج جمرة سيكارة العاشق الفاخرة.

كدت اضحك، اطلق قهقهة عالية التردد، تسير بسرعة الضياع، ولكن الجندي المذعور، خارج الملجأ صرخ باعلى صوته: سيدي القصف يزداد، لنذهب. ثم اضاف: "شوف اذا اتريد تبقى، فآني رايح؟!".. فرد عليه السيد مقدم اللواء: "جاي يابه جاي، امرنه لله"

وبخروج السيد المقدم تكون قهقهتي قد اطلق سراحها. فك سيادته اسرها، فانطلقت مدوية في الصحراء، تعبر الملاجئ والسواتر وحقول الالغام، وتنتشر في كل مكان.

وددت لو انها وصلت الى مسامع شوارتزكوت وشيني وباول وبيكر وبوش الاب والمطيري وخالد بن سلطان وهورنر وجيسي جونسون.

وددت ان تكون قهقهتي خاتمة هذا الضياع ونهاية واقعية لتلك الحرب.. قهقهتي المريرة التي اكتشفت الهزيمة مبكراً. وانطلقت من تلك الحفرة الضيقة التي ضيفت سيادة مقدم اللواء على الرمل في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

ولكن لابد للهزيمة من ان تحرث كل فصولها المجهولة، ولكن برفقة قهقهتي دون شك.